صرصار ...

قصة بقلم إحسان عنايت

تعقدت سحب الدخان الازرق ، وتصاعدت الى السقف القريب ، ثم ارتدت في حركات لولبية ... وفاحت رائحتها الغريبة ، فطغت على رائحة الرطوبة والعفن المنتشرة في هواء الحجرة العتيقة ... وجال محمود بناظريه في الحلقة الآدمية المنظمة متتبعاً السحابة الزرقاء في دورتها الرتيبة البطيئة ... والوجوه الجامدة التي تنظر في شوق الى لا شيء .

لقد جاء مع الاسطى عبده السمكري جاره وصديقه ... لقد احضره لينسى ، فهل نسي ؟... وكيف ينسى او تغيب عن ذهنه المتميع تفاصيل الحادثة ، بل الحوادث المتتابعة التي مرت بحياته في الحقبة الاخيرة منها .. لقد تذكر فيما يشبه الاحلام ، بعد ان أزاح جانباً مئات الخواطر المتزاحمة في إصرار .. لقد تذكر زوجته سعدية ، وقد حملها رجال الاسعاف على « النقالة » المخيفة .. وقد تدلت ذراعاها تتطوحان مع حركات الرجال السريعة الحازمة .. ومرت السحابة .

وابتلع محمود انفاساً طويلة ، دفعها دفعاً الى رئتيه ، وملأ بها صدره ثم نفثها في تأن وروية ، ومال برأسه وتحركت حدقتاه في تلصص تبحثان عن الاسطى عبده من خلال السحب الكثيفة .. ورأى السحابة تمر عليه .. ثم تتركه في دورتها الرتيبة .. وطاف بذهنه منظر «النقالة» وهي تنحدر الى جوف العربة البيضاء ، والعربة تغلق في صوت حاد على سعدية ، وأياد كثيرة تسنده .. لقد كانت تغسل في منزل من منازل الناس ، وانفجر في وجهها « وابور الجاز » . ومرت السحابة الزرقاء .

نفث الدخان في ضيق وضجر ، ودار برأسه دورات متتابعة .. واخذ يجمع افكاره المبددة المتخلخلة .. الوابور .. الوابور .. وتسلق بعينيه الوجوه المتحجرة والدخان الأزرق المتصاعد الى سقف الحجرة .. الوابور ، والدخان .. وتذكر — تذكر « وابور السكة الحديد » .. والقنال ، لقد كان هناك ، وطالما ركب الوابور في ذهابه وعودته الى القاهرة .. عودته في عطلة الاسبوع والعطلات الاخرى الكثيرة .. والمال يملأ جيوبه ، وسعدية في انتظاره وقد تراكمت على نفسها أشواق اسبوع .. واسبوعين .. وربما شهر كامل . والابتسامة الرائعة على وجهها المشرق .. وتقلصت عضلات وجهه ، كيف يبدو وجه سعدية الآن ؟! ملتهباً مخيفاً !.. ومرت السحابة الزرقاء .

دفعها بعيداً في ألم شديد ... لقد كان المال يملأ جيوبه في تلك الايام ، وقد ارتدت سعدية افخر الثياب ، وذهبت معه الى السينما . يا ليته ادخر شيئاً للأيام السوداء .. ولكن هل كان يدري انه سيترك القنال ، مع الجيوش من العمال التي تركت القنال استجابة لدافع الوطنية ؟. لقد كان سعيداً بان يؤدي للوطن هذه الخدمة .. ولا يزال يتمتع الى الآن بالخدر اللطيف الذي تبعثه ذكرى الحماسة التي تركت بها جموعهم خدمة اعداء الوطن ومستعمريه .. ولقد قال العمال ان الحكومة قد وعدت بايجاد عمل لكل منهم ... وتخيل محمود العمل في قلب القاهرة قريباً من سعدية ... ومرت السحابة الزرقاء .

وتململ في جلسته ، ومر على ساقه العارية صرصار من الصراصير الكثيرة التي تسعى في ارض الحجرة وعلى جدرانها ، فانتفض .. وطار الصرصار قريباً من وجهه ، فدفعه بكفه الى اقصى الحجرة ، وطوى ساقيه .. وأحس بجيوش من النمل الصغير تسعى داخل ركبتيه .. انه الروماتيزم اللعين .. روماتيزم قديم قد تمكن منه .. لقد كانت اياماً كريهة ، وهو يذكر جيداً ايام ان عمل بدمياط .. فراشاً في احدى المدارس لقد وجدت له الحكومة عملاً بعد ان ترك عمله بالقنال .. فراشاً ، ولمَ لا ؟!.. أحسن من لا شيء ، وإلا فأين سيجد عملاً وألوف العمال الوافدة من القنال تسد كل سبيل ؟. لقد كان يبيت في المدرسة على البلاط ، وهناك تسلل الروماتيزم الخبيث الى عظامه .. وكانت الحمى قاسية فترك العمل ورجع الى سعدية ، وكان في هذه المرة لا يحمل نقوداً أو هدايا ، بل آلام مرض مضن .. وتضطر سعدية الى ان تغسل في بيوت الناس ، ليعيش هو ويجد ثمن العلاج .. ثم بعد هذا كله ، ينفجر « وابور الجاز » في وجه سعدية .. ويقول صاحب البيت بكل حماسة ان الغلطة غلطة سعدية ، « فالوابور » مكتوم ، وسعدية لم تحاول تسليكه .. ويشير الى ابر الوابور ويقول : ابر الوابور كثيرة .. الابر كثيرة .. الابر .. وتمر السحابة الزرقاء .

عيد الميلاد ١٩٥٤

نزح المساء ، ولم أزل أحيا بأحلام النيام
أردُ النهار بمقلتيْ سأمان من هول الزحام
ماذا عليّ لو انعطفتُ لغرفتي ... حتى أنام
وأغوص في بحر السلام

النور عملاق يزلزل هدأتي ... ويهدّ أمني
ويريني المهوى العميق لرحلتي ، فيُريع ظني
يا ليل ! يا راحي ومصباحي وأفراحي وكني
أبْعدْ رماح النور عني

يا وحدتي .. أليل راحْ لا بد من خوض الصباحْ
لا بد من خوض الصباح ! إلى الجراح ! إلى النواح
ماذا بوسع النازلين إلى الصباح بلا سلاح ؟
يا وحدتي أليل راح

الكأس في كفي نجيبهْ تَلِدُ الخرافات العجيبه
تلد المساء .. غوانياً يغفين في حلل قشيبه
تلد الصباح .. أنا به المنصور في رأس الكتيبه
لكنها حبلى كذوبه

أمعيّري بالوهم لا وهم هناك ولا حقيقه
الطفل يفجؤني بأسئلة محيّرة عميقه
وذوو الذقون البيض يزدحمون في الغرف العتيقة
ويفتشون عن (الطريقة)

يا عيد يا نبعي الكئيب يا ذكر إنسان غريب
حمل الذنوب عن القطيع فمات من وقر الذنوب
يا لاهثاً فوق الصليب يكاد يسألك الصليب
لمَ متّ من دون الصليب ؟

القاهرة

صلاح الدين عبد الصبور
من الجمعية الأدبية المصرية

ويميل مستنداً على احدى يديه ، ويعصر بالاخرى جبهته حتى لا يفلت منه حبل الافكار .. الابر .. ابر الوابور .. ويبتسم في ألم بالغ .. لقد قالوا له لماذا تقعد بالبيت وسعدية تترنح في منازل الناس ؟. وسألهم أين العمل وأنا اعمل ؟. وبعد هذا يقولون : أي عمل .. لماذا لا تبيع الدبابيس .. حجر ولاعة .. ابر وابور .. ابر وابور .. انا ابيع ابر وابور واتطوح بأقدامي المتهالكة فوق سلم الترام !!. ويقترب الصرصار ثانية من قدمه فيزيحه بعيداً في تثاقل وبطء ... ويسعل احد افراد الحلقة المحكمة .. فتتوقف السحابة عن دوارها الرتيب ، وتشخص الأبصار الى صاحب السعال ، وهو يتشنج في نوبة من السعال المتصل .. وتنتهي النوبة ببصقة قوية يقذفها الى ركن من اركان الحجرة .. وتعود السحابة الزرقاء الى دوارها المتصل.

لقد كانت سعدية تسعل في الأيام الأخيرة سعالاً متصلاً ، لقد نصحها كثيراً بأن تريح نفسها بعض الشيء ، ولكنها كانت تنظر الى قدميه المخدرتين وتقول .. ومن أين نأكل يا محمود ؟ ويتصبب منه عرق غزير ، ويميل عليه الأسطى عبده ويقول في بلادة « مالك ؟ » وبصوت خفيض يجيب محمود « أبداً !! » ، وتمر السحابة الزرقاء .

ويشعر محمود بضيق شديد ويحرك قدميه .. وتسير أنابيب من الألم في ساقيه ، وتصعد الى رأسه في دوامة بطيئة قاتلة .. فيتألم في صمت والعرق يتصبب من مسام جسده في غزارة .. وينظر الى ارض الغرفة ، خلال سحب الدخان الكثيفة .. ويرى الصرصار يقترب منه في ثبات وجرأة ، في خطوات متتابعة ، ويحرك شاربيه في حركة منتظمة مملة ، ويشعر محمود بضيق في صدره وتحجر في حلقه ، فيبتعد بعض الشيء مستنداً جدار الحجرة المتآكل .. ويقترب الصرصار في اصرار غريب .. فيزداد محمود التصاقاً بالجدار .. ولكن الصرصار يسعى اليه بنفس الاصرار .. وفجأة ! ينهض محمود وينقض على الصرصار بقدميه في عنف وقسوة .. ويرفع قدميه ، وينظر الى بقايا الصرصار الممزق في تلذذ وتشف !!

ويرتفع صوت أجشّ غليظ من طرف الحجرة الآخر « ايه الحكاية يا جدعان ؟ » ويرد الاسطى عبده وهو يجذب محمود ليجلسه ثانية « أبداً مفيش .. ده صرصار !! »

القاهرة

راجي عنايت